البصرة في مرحلة السيطرة البرتغالية على الخليج ﴿دراسة في المصادر﴾

الدكتــور
محمد حميد السلمان
جامعة دلمون - مملكة البحرين

ملخص الدراسة:

تهدف هذه الورقة التي بين أيديكم عبر سطورها إلى البحث في المصادر البرتغالية التي ذُكرت بها البصرة خلال مرحلة الغزو البرتغالي للمنطقة الخليجية ومن ثم السيطرة عليها عسكرياً وسياسياً بين أعوام ١٥٠٧-١٦٥٠م.

تركز تلك المصادر على أوضاع البصرة في بداية الغزو البرتغالي للخليج عام ١٥٠٧، ثم في مرحلة السيطرة البرتغالية عسكرياً واقتصاديا على كل زوايا المثلث الذهبي التجاري الخليجي (هُرمز- البحرين- البصرة) طوال القرن السادس عشر للميلاد، وانتهاءً بمطلع القرن السابع عشر للميلاد حين انهارت السيطرة البرتغالية على الخليج بفعل الحلف الانجلو- فارسي في عهد الشاه عباس الأول عام ١٦٢٢.

وتظهر البصرة بوصفها ميناء ومدينة تجارية في رأس الخليج في وثائق ومراسلات القادة العسكريين البرتغاليين بين منطقة الخليج والهند؛ كما في كتابات المؤرخين البرتغاليين المعروفين الذين سجلوا مرحلة الغزو للمنطقة والسيطرة عليها، أمثال:

(Barros, Couto, Castanheda, Correia, and Bocarro,)

وكل واحد من هؤلاء المؤرخين تقلد منصب مسؤول أو خازن للسجلات البرتغالية فيما وراء البحار في كلا المرحلتين البرتغالية أو خلال الاحتلال الاسباني للبرتغال بين ١٥٨٠-١٦٤٠.

ومعظم المصادر كشاهد عيان ومعاصر وذات فائدة علمية كبيرة يمكن العثور عليها في الأرشيف البرتغالي، خصوصاً الأقدم والأكثر أهمية في مجموعة الوثائق البرتغالية المتوافرة، هي ما يعرف بـالأرشيف البرتغالي الوطني:

(The Arquivo Nacional da Torre do Tombo)

يوجد هذا الأرشيف حالياً وسط مدينة (لشبونة)، عاصمة البرتغال، منذ عام ١٣٧٨، وهو يضم ثلاث أقسام تحوي المواد المؤرشفة طوال سنوات السيطرة البرتغالية في المشرق. وعلى سبيل المثال، جاء ذكر البصرة وما جري بها من أحداث متفرقة ضمن ثالث المجموعات الحيوية في هذا الأرشيف ويُطلق عليها "كتب الرياح الموسمية" (Os códices Monsoon) وهى تتضمن ٦٢ مخطوطة. وهذا العنوان أيضاً يوجد في المجموعة الرئيسة لأرشيف جوا بالهند حتى الآن ويحوي ٢٤٠ مجلداً. كذلك يضم الأرشيف (*ANTT*) مجموعات صغيرة متنوعة من الوثائق وتعدُّ مهمة حول الأحداث في الخليج العربي وشبة الجزيرة العربية، واحدة منها هي (رسائل من هُرمز إلى جواو دى كاسترو - João de Castro) الذي كان نائب الملك البرتغالي في الهند في المرحلة ما بين ١٥٤٥- ١٥٤٨ م. تضمنت بعض المعلومات المهمة حول الغزو العثماني للبصرة والعلاقات بين هُرمز والقبائل العربية في البصرة وحولها خلال تلك االمرحلة .

الباحث في هذا الأرشيف البرتغالي الضخم يكتشف عدد من الوثائق يخص الخليج والبصرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد سوف يتم الإشارة إليها خلال الورقة.

"Basra in the period of Portuguese control over the Gulf". (Study of the sources)

By: Dr. Mohammed Hameed Al-Salman
Kingdom of Bahrain

Abstract:

Portugal, a small kingdom on the fringes of Europe, in just a few years established an empire in the East, from East Africa and the Arabian Gulf to the Indonesian archipelago and China Sea.
Portuguese motives centred essentially on the economic potential of seeking out the places of origin of spices, and they used their modern European naval power and political sytems to carry out these aims. From an early stage in their voyages to the Indian Ocean they unilaterally declared that all spice trade was to be conducted by themselves or their allies. In addition, the Portuguese strove to enhance their image in history by encouraging their chroniclers to write and publish works on the heroism of "*Os Lusíadas*" in the age of discovery.

In fact, the period of Portuguese influence in the Gulf has been generally regarded as one of the most important periods in the region's history. In addition, Portuguese invaded successfully the Gulf by their modern ships called (Naus, Caravelas, e Galés), and other. On the other hand, there was a lack for modern ships, for war or commerce, in the Gulf at that time.
A satisfactory historical approach has not yet been established regarding the reality of Portugal's role in the Gulf. Conferences held about the Portuguese in the Gulf region, have gone no

further than repeat what we know about Portuguese conquests in the Indian Ocean and the Gulf, and the objectives of the Portuguese at the beginning of the sixteenth century.

This paper deals with Basra in the period of Portuguese control over the Gulf during XVI century. With Display the original Portuguese documents, it will examine and discuss Portuguese activities near and in Basra during the XVI century depends on Portuguese Archives.

The core function of this paper, is to discover the kind of the relations between the Portuguese and the local powers in Basra, such as the Al- Muntafiq tribe, during that century. More focus on the Turkish occupation of Basra in 1546, and the conflict between both strong power, the Portuguese and the Ottomans at Basra.

It should be noted, that most of the Portuguese documents have not been translated into English or Arabic, and many of them are still unpublished. There was also difficulty in locating certain sources, because some documents brought from India to Lisbon during the period in question were lost, whether at sea or in fighting with other Europeans.

In spite of these problems, extant Portuguese sources are very valuable about history of the Gulf, and in particular, on Basra.
The most useful contemporary eyewitness sources from the discovery period are in the Portuguese archives, especially the oldest and the most important of the Portuguese collections, the Arquivo Nacional da Torre do Tombo (*ANTT*), which was established in Lisbon in 1378. The (*ANTT*) also has several smaller collections of documents which are important for the

events of the Gulf and Arabian Peninsula. One of them is 'Cartas de Ormuz a Dom João de Castro' – the letters from Hormuz to João de Castro, who was Viceroy of India in the period 1545-48. Recently, two Portuguese historians have published a selection of these letters. They contain some important information about the Ottoman occupation of Basra and relations between the Portuguese and Basra's Tribes, as well as, Hormuz and Basra relations during that time.

In addition to all these manuscript administrative sources, there is also a rich chronicle literature that relates, often in detail, the achievements of the Portuguese in Asia and Africa. The principal chroniclers are Barros, Couto, Castanheda, Correia, and Bocarro, who each held the position of 'Keeper of Records'. Some of these historians were relatives of the royal household or under royal patronage and direction in both Portugal and Spain.

البرتغال والخليج:

البرتغال، تلك المملكة الصغيرة الواقعة على الحدود البحرية الجنوبية الغربية لقارة أوروبا الغربية، تمكنت خلال بضع سنوات فقط من تأسيس أول إمبراطورية أوروبية في المشرق. امتدت من شرق إفريقيا والخليج العربي إلى جزر اندونيسيا وبحر الصين.

ويعزو نجاح البرتغاليين في غزوهم لمناطق الشرق عموماً لسفنهم الحديثة من أنواع عدة كانت تسمى : (Naus, Caravelas, e Galés)، وغيرها. في الوقت الذي لم يكن أهل المشرق، ومنهم سكان الخليج، يملكون أية سفن حديثة سواء التجارية أو القتالية منها.

منذ البداية تركزت أهداف البرتغاليين تحديداً على التوجهات الاقتصادية للبحث عن المناطق الرئيسية في العالم [١] لإنتاج الذهب الأسود لذلك العصر وهي التوابل والبهارات. وقد استخدم البرتغاليون في سبيل تحقيق تلك الأهداف قوتهم البحرية الأوروبية الحديثة آنذاك ونظمهم السياسية. ومنذ اللحظة المبكرة لرحلاتهم الاستكشافية إلى أرجاء المحيط الهندي أعلن البرتغاليون بوضوح، دون كل الأوروبيين، أن كل تجارة التوابل والبهارات سيتم السيطرة عليها وإدارتها من قبلهم أو من قبل حلفائهم فقط. أضف إلى ذلك، أن البرتغاليين سخروا كل إمكانيات مؤرخيهم لتعزيز وتلميع صورتهم في التاريخ بتشجيع أولئك الكُتاب لتدوين وإصدار أعمالهم حول البطولات العظيمة للأبطال البرتغاليين في عصر الكشوف الجغرافية [٢] .

وتأتي هذه الدراسة الخاصة عن تلك المرحلة من التاريخ لتشمل مرحلة السيطرة البرتغالية على الخليج العربي من عام ١٥٢١ بعد ضم مملكة هُرمز والبحرين والقطيف، والطموح في ضم البصرة إلى منظومة الحكم البرتغالي في الخليج، وحتى عام ١٦٢٢ عندما تلاشت السيطرة البرتغالية العسكرية عن منطقة حوض الخليج تحديداً. وتعدّ هذه المرحلة التي تغطيها دراسة الوثائق ذات بعد حيوي وحاسم في تاريخ الخليج وعصر الهيمنة البرتغالية عليه، لأنها تبدأ منذ بزوغ القوة البرتغالية عام ١٥٠٧ وحتى سقوطها العسكري والسياسي في المنطقة عام ١٦٢٢.

وبناءً عليه، يمكننا تسجيل أهم ملاحظة على تلك المرحلة البرتغالية الطويلة في الخليج بأنها كانت ذات تأثير عظيم في تاريخ المنطقة. ومن ثم يمكن القول، بأنه منذ بدء الغزو البرتغالي للخليج في مطلع القرن السادس عشر للميلاد وحتى نهايته، مرت المنطقة الخليجية بمراحل بارزة من التطور السياسي والاجتماعي أثر على مجمل حياتها. أضف إلى ذلك، أن وصول البرتغاليين إلى المشرق وسيطرتهم على هُرمز، بقي مجالاً بعيداً عن التحليل والنقد التاريخي لسنوات طويلة.

الوثائق البرتغالية الخاصة بالخليج والبصرة:

تركز دراسة الوثائق البرتغالية في المرحلة حيز البحث على بعض النشاطات البرتغالية حول البصرة وفيها، ونوع العلاقات التي نشأت بين السلطات البرتغالية والسلطات المحلية في البصرة خلال القرن السادس عشر للميلاد فقط؛ وذلك من خلال الاعتماد على مواد الأرشيف البرتغالي المتوافرة حالياً.

لم يصل المؤرخون بعد سواء في البرتغال أو دول الخليج العربية إلى حقيقة الحكم البرتغالي في الخليج. وحتى تلك المؤتمرات التاريخية الخاصة بهذا الموضوع التي عُقدت في منطقة الخليج [٣] في سنوات سابقة، لم تذهب بعيداً في بحوثها عما نعلم مسبقاً حول الغزو البرتغالي لمناطق المحيط الهندي والخليج العربي. أو حول أهداف ذلك الغزو الذي حدث أوائل القرن السادس عشر للميلاد.

إلا أنه وبسبب ندرة الممنوح لنا من معلومات عن البرتغاليين في الخليج بالتحديد لابد من الاعتماد على استنطاق وترجمة المصادر الأولية سواء كانت المخطوطات اليدوية أو الروايات والقرارات الإدارية البرتغالية التي صدرت في حينها. ولابد من التنبيه هنا، إلى أن معظم الوثائق البرتغالية لم تترجم إلى الانجليزية أو العربية بعد، بل أن معظمها مازال غير مطبوع حتى الآن وهو حبيس الأدراج والأرفف ضمن محتويات الأرشيف البرتغالي. أضف إلى ذلك أن عددا لا بأس به من تلك الوثائق الأصلية المخطوطة لا يعلم مكان وجودها اليوم، لأنها قد جلبت من الهند البرتغالية إلى لشبونة خلال مرحلة الصراع البحري بين البرتغال والقوى الأوروبية الأخرى. ولذا، فلربما ضاعت تلك الوثائق في البحر أثناء أدوار ذلك الصراع أو أُحرقت خلاله. وكمثال على ذلك، ففي عام ١٥٩٢م سيطرت بعض السفن الانجليزية الحربية على عدة سفن شحن برتغالية من نوع (*Carrack*) فوجدوا بها كميات قيمة من السجلات الحكومية البرتغالية تخص شؤون التجارة البرتغالية في المشرق [٤] ولكننا لا نعلم ماذا حدث لتلك السجلات الضخمة بعد هذه الحادثة [٥].

وبالرغم من هذه الصعوبات الأولية للباحث، يمكننا من خلال المصادر البرتغالية المتوافرة الحصول على معلومات قيمة عن منطقة الخليج، ومن بينها البصرة.

معظم المصادر كشاهد عيان ومعاصر وذات فائدة لتغطية عصر الكشوف الجغرافية الأوروبية؛ يمكن العثور عليها في أقدم وأكثر الأرشيفات البرتغالية أهمية ضمن مجموعة الوثائق البرتغالية فيما يعرف بـالأرشيف الوطني لبرج الزمن، أي الأرشيف الوطني التاريخي:

(The Arquivo Nacional da Torre do Tombo)

ويختصر في (*ANTT*) الذي أنشأ عام ١٣٧٨، وهو حالياً في مدينة (لشبونة) عاصمة البرتغال [٦] . ومن بين آلاف الوثائق في هذه المجموعة، عدد لا بأس به يخص القرن السادس عشر للميلاد، إلا أنه ليس هناك دليل توضيحي خاص بالخليج أو بحر العرب، كالذي وضع مثلاً للبرازيل، أنغولا، تيمور، الصين والهند؛ يسهل على الباحث الوصول إلى تلك الوثائق.

هذا الأرشيف الوطني البرتغالي يضم ثلاث أقسام ضخمة من المواد المؤرشفة. أولها وأكبرها يسمي مجموعة السلسة التاريخية أو الزمنية (Corpo Cronológico)، وتضم ٨٢,٩٠٢ وثيقة محفوظة في عدة مطويات تسمي (Maços) أي حزمة أو صرة. معظم المواد الأرشيفية في هذه المجموعة تعود إلى القرن السادس عشر للميلاد ولكن ليس لمنطقة الخليج تحديداً بل لكل مناطق المحيط الهندي. إلا أن المشكلة في هذه الوثائق إنها ليست أصلية بل مصورة كما أنها ليست مطبوعة بل كتبت بخط يد ردئ وتصويرها أردأ.

فضلا عن هذه المخطوطات المصدرية الإدارية، هناك سجل غنى بالأحداث ذو صبغة أدبية، وهو يعود، في تفاصيل كثيرة منه، إلى تاريخ الخليج والإنجازات البرتغالية في آسيا وأفريقيا بالذات. هذه الأعمال والسجلات التاريخية المعاصرة كتبت خلال ما سمي في البرتغالية بـ (*Idade de Ouro*) أي العصر الذهبي للبرتغال في القرن السادس عشر للميلاد.

وأهم السجلات الرئيسية التاريخية لذاك العصر الذهبي تعود إلى ابرز الكتاب وهم:

- Diogo do Couto, *Décadas*, ed.
- João de Barros, *Ásia*, ed. -
- Fernão Lopes Castanheda, *História do Descobrimentos e Conquista da Índia pelos Portugueses*, ed.
- Gaspar Correia, *Lendas da Índia*, ed.
- Antonio Bocarro, *Década 13 da História da Índia*
- Damião de Goes, *Crónica do Felicissimo Rei D. Manuel*, ed.

حيث أن كل واحد من هؤلاء تقلد منصب مسؤول أو خازن السجلات البرتغالية في الهند. بعض هؤلاء المؤرخين والكتاب كان ينتمي للعائلة المالكة في لشبونة أو ذي علاقة جيدة بها سواء كان في مرحلة استقلال البرتغال أو في عهد الاتحاد البرتغالي-الاسباني بعد أن فقدت البرتغال استقلالها الذاتي عام ١٥٨٠ حيث وقعت تحت الوصاية الاسبانية وكذلك المستعمرات التابعة لها في شرق وغرب العالم حتى عام ١٦٤٠.

نشير هنا فقط في هذه الورقة لإحدى تلك السجلات، وهي الخاصة بالمؤرخ (Barros) حيث نجد في العشرية الرابعة، والتي طبعت عام ١٦١٥ بعد موت (Barros)، وفي القسم الثالث منها معلومات قيمة عن الحاكم السابع للهند البرتغالية المدعو (نونو دا كونها - Nuno da Cunh) والذي حكم ما بين ١٥٢٩-١٥٣٨، وعدد من الأحداث المهمة التي وقعت في مسقط، هُرمز، البصرة، والبحرين عام ١٥٢٩م [٧]. كما أن هناك ذكرا للبصرة عند (Barros) في قضية غزو البحرين على يد البرتغاليين عام ١٥٢١ حين ادعي (توران شاه الرابع) حاكم هُرمز بأن الأمير مقرن بن زامل الجبري يقوم بالتعرض للسفن الشراعية بين هُرمز والبصرة [٨] .

فضلا عن هذه المذكرات والسير الذاتية، هناك بعض كتب الرحلات المهمة تضمنت معلومات قيمة أيضاً عن البصرة وأكثرها أهمية (رحلات بيدرو تاكسيرا - The Travels of Pedro Teixeira) [٩] . فهو قد سافر إلى الهند حوالي عام ١٥٨٦،

أي بعد بضع سنوات من وصول الرحالة الهولندي (جان هايجن لينشوتن - Jan Huyghen Van Linschoten) إلى المشرق [١٠] ، ومكث (Teixeira) في المشرق حتى عام ١٦٠٥. وكانت ذلك في المرحلة الحاسمة من تاريخ الإمبراطورية البرتغالية في المنطقة. وقد زار (Teixeira) الخليج مرتين، الأولى في ١٥٨٧ والثانية في ١٦٠٤، وأثناء ذلك زار البصرة أيضاً [١١] .

وكما أن الجدول الآتي يوضح أهمية البصرة في التجارة البرتغالية في الخليج حيث بلغ ريعها في أربعينيات القرن السادس عشر للميلاد ٩ آلاف أشرفي ذهبي وهي نسبة أعلى من تلك التجارة القادمة من بلاد السند:

Table-1. Customs Revenues of Hormuz in the 1540s [12]

Source of Revenue	**Amount (in *ashrafi*)**
Trade from Gujarat	35,000
Trade from Persia	35,000
Trade to and from Basra	9,000
Trade from Sind	8,000
Duties paid by Portuguese	10,000
Total	97,000

كما أن طريق البصرة- بغداد كان لدى البرتغاليين خلال القرن السادس عشر يشكل الطريق البديل لما سمي في مصطلح الكشوف البرتغالية (طريق الهند- *Carreira Da India*). فمن خلال هذا الطريق البديل تأخذ البضائع طريقها من البصرة إلى بغداد ثم إلى تركيا أو إلى بلاد فارس حيث طريق الحرير المشهور آنذاك [١٣] . وفي هذا الصدد، تذكر الوثائق البرتغالية بأن البصرة كانت تتمتع بحركة تجارية كبيرة مع الهند في أوائل القرن السادس عشر، حيث يتم تجميع العديد من البضائع مثل الشعير والزبدة والتمور العراقية واللؤلؤ البحريني المميز وبضائع بلاد

فارس وبالذات من شيراز ولار مثل الحرير والسجاد، والقماش الدمشقي، والصوف والذهب والفضة، فضلا عن المنسوجات الأوروبية، وغيرها، هذه وسواها يتم تصديرها إلى الهند عبر هذا الميناء الخليجي (١٤) .

كما تتحدث الوثائق عن جزء من الشبكات التقليدية البحرية التي كانت تعمل باستمرار بين البصرة و(Goa)؛ فكان معظم البضائع التي تأتي عن هذا الطريق، وخاصة القمح البصراوي والزبدة، تُحمل على ظهر سفن صغيرة وسريعة تسمي بالبرتغالية (*tarrãda*) تعمل بين هُرمز والبصرة (١٥) .

كذلك تذكر الوثائق البرتغالية أن من السلع المهمة للبرتغاليين في البصرة هي الخيول العربية الأصيلة. فقد كان يصدر سنوياً منها إلى (Goa)، عاصمة البرتغاليين في المشرق الإسلامي، عبر هُرمز البرتغالية ما بين ٦٠٠-٨٠٠ حصان. وبذلك، فهذه التجارة مع غيرها من أنواع البضائع الأخرى، كانت تشكل رقما مهماً في أرباح جمارك البصرة مما دفع البرتغاليين لمحاولة احتلال البصرة أكثر من مرة، كما حدث خلال حملة القائد البرتغالي (Behchior Tavares de Sousa) عام ١٥٢٩ (١٦) .

كما تذكر الوثائق البرتغالية الاقتصادية أن مقدار الضرائب التي كانت تفرض على السلع الشرقية في البصرة ١٠ % على البهارات والتوابل والأقمشة، و١١ % على البضائع التي يعاد تصديرها من البصرة إلى بغداد (١٧).

العلاقات التركية - البرتغالية في البصرة:

توجد في الأرشيف البرتغالي العديد من الوثائق والتقارير التي تتناول وتتحدث عن علاقة الأتراك في البصرة بُهُرمز إبان السيطرة البرتغالية عليها، وسياستهم الحذرة في التعامل مع السلطات البرتغالية في هناك (١٨) . كما أن هناك إشارات عديدة في المصادر والوثائق البرتغالية عن الأوضاع الاقتصادية والسياسية في البصرة خلال السيطرة التركية والعلاقات بينها وبين هُرمز في تلك المرحلة (١٩) .

من ضمن وثائق تلك العلاقات التركية- البرتغالية أثناء الاحتلال العثماني للبصرة بعد عام ١٥٤٦، على سبيل المثال، هناك رسائل بُعثت من قبل الشيخ ابن

عليان (Ben Ūlyaan) أحد زعماء (المنتفج) في البصرة لقائد قلعة هُرمز البرتغالية تذكر أن الأتراك يتوجهون لبناء حصن لهم عند مدخل ميناء البصرة في القرنة [٢٠].

وفي السياق نفسه تذكر تقارير مخابراتية برتغالية بأن الأتراك من أجل السعي للحصول على المنتجات الشرقية من الهند والشرق الأقصى اضطروا لنسيان خلافاتهم مع البرتغاليين في الخليج لفترات متعددة. وفي هذا السياق تذكر بعض الوثائق البرتغالية أن الأتراك كانوا بحاجة ماسة للأخشاب من الهند وشرق أفريقيا لبناء أسطولهم في البصرة، وتلك التجارة تمر عبر مضيق هُرمز وهو في يد البرتغاليين؛ لذا اضطروا لمهادنة البرتغاليين عدة مرات من أجل هذا الغرض [٢١].

كما أنه من جانب آخر أيضاً، اضطرار البرتغاليين بسبب حاجتهم لحبوب القمح من جنوب العراق لتغذية جنودهم في قلعة هُرمز،أن يبادلوا الأتراك المصالح التجارية نفسها . ولذا سمح البرتغاليون، كما تشير المصادر البرتغالية، بتزويد البصرة التركية سنوياً بحوالي ٣٠٠٠ بالة من الفلفل، مقابل تزويد الأتراك للبرتغاليين بألف قنطار من قمح البصرة [٢٢] . فضلا عن تغاضى البرتغاليين في هُرمز كثيراً عن التجارة الممنوع وصولها للبصرة مقابل بعض الرشاوى من الأتراك، كما حدث في عهد قائد قلعة هُرمز المدعو (Luis Falcâo) [٢٣] .

كما تذكر بعض الوثائق البرتغالية بأن البرتغاليين، خصوصاً في عهد القائد العسكري البرتغالي في هُرمز (Luis Falcâo)؛ حافظوا على علاقات طيبة مع القبائل العربية في البصرة ولاسيما أولئك الذين وقفوا بجانب البرتغاليين ضد الأتراك، حتى أن هناك وثيقة برتغالية [٢٤] تصف الشيخ ابن عليان بأنه (صديق) للبرتغاليين بهذه العبارة:

(*há muitos tempos que tivemos amizade*)
(من مدة طويلة هذا الشخص صديق لنا)

فضلا عن ذلك ، تدخل البرتغاليين أكثر من مرة في الصراع بين بعض الزعماء حول البصرة، كمثل وقوفهم إلى جانب الشيخ راشد بن مغامس ضد أحد

مشايخ منطقة الجزيرة بجنوب العراق. ولهذا فقد أُرسلت بضع سفن بقيادة القائد البرتغالي (Behchior Tavarez de Sousa) لمساندة بن مغامس. لكنه عندما رفض تسليم سبع سفن تركية من نوع (*fustas*) كانت بعهدته للبرتغاليين، ولم يقم بمنع الأتراك في البصرة من التجارة مع المدينة من جديد؛ فقد أنتقم (de Sousa) منه بأن احرق بعض قرى البصرة ورجع إلى هُرمز دون تحقيق أي مكسب سياسي أو عسكري هناك [٢٥] .

إلا أن تلك العلاقات العربية القبلية - البرتغالية حول البصرة بالذات كانت تقلق الأتراك. وهناك رسالتان من ابن علين والشيخ يحي من شيوخ البصرة تم إرسالهما إلى (Luis Falcâo) في هُرمز تؤكدان تلك العلاقة [٢٦] .

تذكر بعض الوثائق البرتغالية بأن التجارة بين البصرة وحلب عبر بغداد وكذلك التجارة مع هُرمز قد ضعفت بعد سيطرة الأتراك على البصرة [٢٧] .

في عام ١٥٥٦ حاول البرتغاليون توظيف الانتفاضة التي قامت ضد الأتراك في البصرة لصالحهم بأن بدأوا من جديد في تفعيل علاقاتهم ببعض زعماء العشائر في الجنوب العراقي. لذا فقد تم إرسال القائد البرتغالي المدعو (Antão de Noronha) لجلب مساعدة خاصة من (جوا) إلى هُرمز لاستخدامها في دعم تلك الانتفاضة العربية العراقية. وفعلاً وصلت المساعدة البرتغالية بقيادة المدعو (Álvaro da Silveira) قائد البحر البرتغالي إلى قرب ميناء البصرة؛ إلا أن القائد البرتغالي لم يقدم شيئاً لتلك الانتفاضة بحجة معاكسة الرياح لسفنه ومنعها من دخول الميناء [٢٨].

كما ذُكرت البصرة في تقرير الحملة التركية على البحرين عام ١٥٥٩ التي تمت بالتعاون بين والي الأحساء مصطفي باشا ووالى البصرة على باشا الذي أمد الحملة بحوالي ٧٠ قارباً من البصرة وحدها لإنجاح الهجوم على جزر البحرين وتخليصها من يد البرتغاليين [٢٩] .

ولكن سرعان ما عادت الاتصالات بين البرتغاليين والأتراك في الخليج إثر فشل حملة مصطفي باشا على البحرين. ففي عام ١٥٦٢، تذكر احدى الوثائق البرتغالية بأن

والى البصرة التركي أرسل مبعوثا إلى قائد قلعة هُرمز المدعو (Pedro de Sousa) من أجل مفاوضات مرور التجارة التركية عبر مضيق هُرمز من جديد (٣٠) .

أول برتغالي وصل إلى البصرة:

هناك كم لا بأس به من الوثائق المتناثرة عن البصرة في الأرشيف البرتغالي يسد النقص بلا شك في تاريخ هذه المدينة العريقة ضمن المرحلة البرتغالية في القرن السادس عشر للميلاد. وسنعرض هنا بالتفصيل لأهم تلك الوثائق البرتغالية الخاصة بتاريخ البصرة، التي توضح علاقة البرتغاليين بميناء ومدينة البصرة ومدى أهميتها لهم، خلال الربع الأول من القرن السادس عشر للميلاد.

كما نشير هنا إلى أن الاتصالات البرتغالية مع جنوب العراق، ونعني بها البصرة تحديداً، بدأت كما تذكر بعض الوثائق البرتغالية بعد عام ١٥١٠ [٣١] . ولذا فهناك وثيقة أولية متوافرة حالياً ضمن مقتنيات الأرشيف الوطني البرتغالي بلشبونة (*ANTT*)، تذكر أن أول وصول للبرتغاليين إلى البصرة مباشرة وذلك قبل عام ١٥١٧ كان بواسطة جندي برتغالي يدعى (Gregorio Da Quadra).

كان هذا البرتغالي قد القى القبض عليه عند مدخل البحر الأحمر من قبل بعض المسلمين أثناء مرور احدى الحملات البرتغالية من هناك. وأخذ أسيراً إلى سلطان (زبيد) الأمير عبدالوهاب الطاهري. وبقي في الآسر كما يُذكر لحوالـي ٨ سنوات. وعندما قرر سلطان (زبيد) التوجه إلى موسم الحج عام ١٥١٧؛ اصطحبه معه. وعندما وصل إلى المدينة المنورة وبقرب قبر الرسول (ص)، وأثناء انشغال الحملة عنه، فر من القافلة وقطع الصحراء العربية عبر رحلة طويلة قاصداً فيها طريق ربما أوصله إلى كربلاء أو الكوفة ثم إلى البصرة بحسب مخطط الطرق القديمة في تلك المرحلة، حيث أن ابن بطوطة قصد العراق عن طريق مكة - الكوفة ولكن كان ذاك قبل قرنين من رحلة هذا البرتغالي. ولربما كانت رحلة هذا البرتغالي بين ديسمبر ١٥١٦- ويناير ١٥١٧ وذلك لان موسم الحج لعام ٩٢٢ هـ يصادف

تلك المرحلة الميلادية. وبعد أن عاد من أسره في اليمن إلى هُرمز عن طريق البصرة، وصل هُرمز في ١٦ ابريل من عام ١٥١٧ ثم توجه من هناك إلى البرتغال عام ١٥٢٠ بحسب ما ذكرته الوثيقة في (*ANTT*) [٣٢] .

كما أن هناك وثيقة برتغالية أخرى ضمن مجموعة مكتبة لشبونة الوطنية، تذكر أن (Gregorio Da Quadra) قد عبر الصحراء العربية بصحبة ملك (البَريم) [٣٣] ، كما تنسب هذه المعلومة أيضاً للمؤرخ البرتغالي (Duarte Barbosa). و(البَريم) هي تسمية برتغالية معروفة لجزر البحرين في ذاك الزمان، وبما أن الجبور كانوا يملكون منطقة وسط شبه الجزيرة العربية وشرقها مع جزر البحرين آنذاك في عهد أقوى حكامهم وهو الملك مقرن بن زامل الجبري؛ فلربما أن هذا الجندي البرتغالي قد قابل في موسم حج عام ٩٢٢ هـ السلطان مقرن الجبري وليس السلطان اليمني. وكانت من عادات مقرن الجبري أنه كلما جاء لموسم الحج يستقبله أشراف مكة استقبالاً عظيماً ويكون موكبه مهيباً لما يبذله من عطاء سخي للحرم المكي وسدنته. كما فعل عام ١٥٢٠ لاحقاً، وكان البرتغاليون حينها يهاجمون البحرين على يد القائد (سوتومايور) [٣٤] .

تلك الرحلة الأولي لهذا الجندي البرتغالي سبقت، كما يبدو، بشهرين فقط رحلة أخري مهمة جداً للمدعو (João De Meira) انطلقت من ميناء هُرمز قاصدة البصرة. ولذا عدّت رحلة (João De Meira) في عهد قائد قلعة هُرمز الأول (Albuquerque Pero de 1515-1518)؛ هي الأولى لمسؤول برتغالي وصل البصرة عام ١٥٧١م.

هذه الرحلة البرتغالية الأولي إلى البصرة كتبت في وثيقتين تحت عنوان مجموعة:

N.º 805-(Núcleo Antigo)

والغريب أن هاتين الوثيقتين والرحلة المذكورة بهما لم تُذكر في كتب كبار المؤرخين البرتغاليين للعصر الذهبي كما ذكرنا وهم (باروش، كاستنهيدا، كوريا، البوكيرك، جويس، وغيرهم).

تذكر الوثيقة الأولي: أن (João De Meira) غادر ميناء هُرمز فيما بين ١٥ و١٨ يونيه ١٥١٧ كقبطان للسفينة (navio São Jorge) ومعه المدعو

(Antonio Gil)، وهو الوكيل التجاري في هُرمز، في مهمة لتوفير الحنطةِ للحصنِ البرتغالي في هُرمز، فهي إذن رحلة تجارية بحته. وفي الوثيقة الأولى نفسها ، يتضح إن عودة القبطان تمت في ٢٤ من شهر سبتمبر ١٥١٧، بينما القمح وصل هُرمز في ٥ أكتوبر ١٥١٧. ولذا فهنا توجد بلبلة في التاريخين لأن العودة لا يمكن أن تكون قبل وصول القمح، فالقمح لن يصل وحده دون البرتغاليين.

كما توجد وثيقة أخرى ضمن أرشيف (*ANTT*) تبين أن المدعو (Antonio de Saldanha)، وكان ذلك في عهد حاكم الهند (Diogo Lopes de Sequeira) الذي حكم ما بين ١٥١٨-١٥٢٢، ومن خلال رسالة بعثها إلى ملك البرتغال "مانويل الأول" (D. Manuel I) من كوشين في ٢٨ ديسمبر ١٥١٩؛ أنه قد أرسل القائد (Saldanha) من جوا عام ١٥١٩ مع أسطول في جولة بحرية إلى ساحل جزيرة العرب ثم إلى هُرمز والبصرة ليعود إلى الهند عن طريق ديو [٣٥] .

كما أن هناك وثيقة ضمن الأرشيف نفسه ضمن مجموعة أخري تسمى (Lourenço, São *Colecção Ultramarina Portuguesa*)، صادرة في ٤ نوفمبر عام ١٥٤٦ من قبل القائد العسكري البرتغالي لهُرمز (Luis Falcâo) مرسلة إلى نائب الملك البرتغالي في الهند (João de Castro)؛ تتحدث عن القبض على أثنين من المسلمين قرب البصرة لهم علاقة بالأتراك [٣٦].

الخلاصـــة :

مازال الأرشيف البرتغالي في لشبونة يحوي كنوزاً من الوثائق البرتغالية التي تكشف الكثير عن مرحلة الحكم البرتغالي للخليج وهُرمز ومحاولات سلطات الغزو البرتغالي أن تحتوي البصرة بمينائها الحيوي آنذاك لربطه بمستعمراتها في الهند. ولذا، فالمهمة الآن أمام الباحثين، وبالذات من أبناء العراق، هي كشف تلك الوثائق والعمل على ترجمتها وضمها لتاريخ العراق والبصرة تحديداً في مرحلة السيطرة البرتغالية على الخليج.

مصادر وهوامش البحث.

١- نعني بالعالم في مرحلة الكشوف الجغرافية ثلاث قارات فقط هي آسيا، أوروبا، وأفريقيا.

2- Al-Salman, M. H., "Aspects of Portuguese Rule in the Arabian Gulf, 1521–162", Unpublished PhD thesis, University of Hall, 2005.

٣- من أمثلة هذه المؤتمرات: ندوة الدراسات العُمانية في مسقط، ١٩٨٠م، مؤتمر تاريخ البحرين في المنامة، ١٩٨٣م، ندوة رأس الخيمة التاريخية، ١٩٨٧م.

4- G. Birdwood, *Report on the Old Records of the India Office* (London, 1890), p. 198.

٥- واجه الأرشيف البرتغالي عدة تحديات طوال عهده، فهو ضعيف في الفهرسة حتى الآن. وتعرض لكوارث طبيعية في مدينة لشبونه مثل زلزال عام ١٧٥٥ الذي احدث حريقاً هائلاً في محتوياته. والعمل بحد ذاته في مثل هذا الأرشيف للحصول على معلومة معينة، يشبه مهمة البحث عن كنوز أسطورية.

6- *Guia Geral dos Fundos da Torre do Tombo*, ed. Instituto dos Arquivos Nacionais / Torre do Tombo (Lisbon, 1998), p. xxi.

7- *Quarta Década*, ed. H. Cidade, (Lisbon, 1946), pp. ix-xix.

8- Barros, J., *Ásia*, ed. Hernani Cidade, (Lisbon,1945, 46, 74), vol. III, Liv. vi, p. 27.

- وفقاً لما ذكره (Barros) فإن مقرن حصل على سفن بمجاديف صنعت خصيصاً له من قبل الأتراك لاعتراض سفن البرتغاليين بين هُرمز والبصرة.

9- *The Travels of Pedro Teixeira,* trans. W. F. Sinclair (Nendeln/Liechstenstein, 1967).

10-*The Voyage of John Huyghen Van Linschoten to the East Indies,* trans. A. C. Burnell, 2 vols. (London, 1885).

- لقد تضمنت رحلة الهولندي (Linschoten) بعض المعلومات القيمة حول البرتغاليين في المشرق خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر، وعن الفساد الذي انتشر في أرجاء إمبراطوريتهم في المنطقة آنذاك.

11-*The Travels of Pedro Teixeira*, pp. vii, xx-xxi.

12- *Simão da Botelho,* Cartas Tombo, ff. 76.

13-D. F. Castro, *Crõnica do Vice-rei D. João de Castro,* (Lisbon, 1995), pp. 365-67.

14-[1] *Carta Simão da Costa*, the Governor of Goa, 1563, *ANTT*, *A. G.* vol. V, Gav. xv, 17-40, pp.140-41.

- ذكرت هذه الوثيقة البرتغالية أن البصرة في تلك المرحلة (١٥٦٣) كانت تعد واحدة من أكبر منتجي التمور في العالم وهي مشهورة بالعديد من أنواع التمور التي تنمو حول شط العرب وبالذات في منطقة القرنة. وأهم تلك الأنواع الخلاص والمرزبان. وكان يتم تصدير هذه الأنواع إلى الهند ومصر وأوروبا.

15- ANTT, *Carta Ormuz,* fl. 102, 126.

- فضلا عن ذلك ، فقد كان حاكم البصرة يرسل كل عام ثلاثة خيول خاصة لهُرمز تذهب تحيداً، لملك هرمز، والوزير، والثالثة لقبطان هُرمز البرتغالي.

16- ANTT, *Carta Ormuz,* June 23 1547, fl. 88, carta D. Manuel de Lima to D. João de Castro.

17- ANTT, *A.G.* vol. V, Gav. xv, 17-40, p. 141.

18- L. Albuquerque, *Cartas de D. João III* (Lisbon, 1989), p. 121; ANTT, *A.G.* vol. V, Gav. xv, 17-40, p. 142.

19- *APO*, fasc. III, pp. 711-14; *DUP*, vol. II, pp. 43-4; *Biblioteca de Ajuda*, Cód. 42-51, pp. 293, 331: 'Pareceres sobre os Turcos que estão em Bassorá', 1547; L. Albuquerque, *Cartas de D. João III*, pp. 121-22.

20- L. Albuquerque, *Cartas de D. João III*, pp. 121-22; D. Castro, *Crõnica do Vice-rei D. João de Castro*, pp. 359-60.

21- ANTT, *A.G.* vol. V, Gav. xv, 17-40, p. 142.

22- V. Godinho, *Os Descobrimentos e a Economia Mundial*,(Lisbon, 1950), vol. 2, p. 162.

23- *Carta Ormuz*, fls. 88r-92r.

24- *Carta Ormuz*, f. 115 v.

25- Barros, *Ásia*, vol. IV, liv. iii, pp. 160-61.

26- D. Castro, *Crõnica Vice-rei D. João de Castro*, pp. 359-65; Couto, *Décadas*, vol. VI, Liv. ix, pp. 244-45.

27- ANTT, *Cart. Ormuz*, 27 September, 1547, fl. 123. Letter of D. Manuel de Lima to D. João de Castro.

28- Couto, *Décadas*, vol. VII, Liv. iii, p. 206; Danvers, *The Portuguese in India*, p. 507.

29- Couto, *Décadas*, vol. VII, Liv. vii, p.110; Sousa, *The Portuguese Asia*, vol. II, p. 199.

٣٠- تذكر الوثيقة البرتغالية هذه العبارة حول العلاقات التركية-البرتغالية:

'Ho ano de myll e quinhentos e sasenta e dous (1562) veo ha Ormuz hum embaixador do turquo envyado pelo baxa de Baçora ha pidir pazes ao comde vizo rei da Imdia.' ANTT, *A.G.*, vol. V, Gav. xv, 17-40, Carta de Simão da Costa a el-rei D. Sebastião, p. 137.

31- BNL - *FG*, codice no. 7638, fl. 60v. 'Carta el Rey de Baçera a Afonso da Alburquerque'.

32- *Corpo Cronológico*, Parte III Maço 6 Documento 63.

33- Biblioteca Nacional de Lisboa, Códice 11 008, manuscripts of 16th century.

34- Al-Salman, M. H., "Aspects of Portuguese Rule in the Arabian Gulf, 1521–162", Unpublished PhD thesis.

35- Barros, *Asia*, Decada III, Livro III, cap. I, IIII, XIIII.

36- Lourenço, São, *Colecção Ultramarina Portuguesa*, ed. Maria de Lourdes Lalande, (Lisboa, 1983), Vol. VIII.